

من حديث الشعر

الكتاب الثاني

صديق العزيز ..

رأيتني أزدري الشعر وأصف الشعراء بالجهل والسذاجة .
فأحفظك هذا الوصف ، وغاظك هذا الازدراء . فهببت تذود

به مهل البطريق فأعطاه المتعمم ألف درهم ، وحط عنه
خراج عشرين سنة (أ)

أما بابك — وقد شبهه أبو تمام في بيته بالأسد — فكان
محمول النفس من كبر ، مأخوذاً بداء العظمة التي وصلت به إلى
حد التأله . ولما وصل إلى الأفشين كتاب المتعمم بالأمان لبابك ،
وهو متوار قبيل القبض عليه ، عرضه على بعض من استأمن إليه
من أصحاب بابك — وفيهم ابن له كبير — على أن يستقصوا
موضعه ويوصلوه إليه . فلم يجرؤ أحد منهم على ذلك . قال
الأفشين لبعضهم : ويحك ، إنه يفرح به — إذا أ فقال : أصلح الله
الأمير ، نحن أعراف بهذا منك !

ولما وصل الكتاب إلى بابك على يد اثنين ضمن لهما الأفشين
الدفقة على عيالهما إن قتلا — ضرب بابك عنق أحدهما وشد على
صدره الكتاب مختموماً لم يفصه . وفرض كتاباً آخر كتبه إليه
ابنه يحسن له التسليم ثم أطلق الرسول الثاني وحمله إلى ابنه كلاماً
كله سب وإفحاش ، وفيه قوله : إنك من جنس لا خير فيه ،
وأنا أشهد أنك لست بابني . تمش يوماً واحداً وأنت رئيس خير
أو تمش أربعين سنة وأنت عبد ذليل ؟ ؟ (٩)

وحمل الأفشين بابك إلى سامراء فأمر المتعمم بقتله ، ثم
سلب بموضع يقال له الدقبة ، في شهر صفر سنة ٢٢٣ هـ

محمود عزت هرفز

(يلبس)

(أ) النجوم الزاهرة : ج ٢ ص ٢٣٦

(٩) الطبري : ج ١٠ ص ٢٢٨

عن الشعر والشعراء . ولكنك لم تسلك في هذا الدفاع طريقاً
سواء ، وإنما التوت بك السبل غلظت وأفقدت الأمر على
نفسك وعلى الشعر والشعراء ، ذلك أنك قد زعمت أن الشعر متنوع
مختلف . منه ما يعتمد على الواقع ، ومنه ما يعتمد على الخيال ،
ومنه ما يعتمد على الواقع والخيال جميعاً ، وأنت لا تؤثر
هذا الشعر الذي يسترسل فيه صاحبه مع الخيال ، ويسرف في
ذلك فيتورط في المبالغات وألوان الغلو ، وإنما تؤثر هذا الشعر
الذي لا حظ فيه للخيال ولا للاختراع ، وإنما هو وصف صادق
مطابق للحق الواقع ، وأن مذهبك في ذلك مذهب العرب
الأوائل الذين قال قائمهم :

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
وإذن فأنا مسرف مبالغ حين أزعم أن الشعر جهل وسذاجة
لأنه يعتمد على الخيال ولا يعني بالحقائق ، وأين يقع شعر أبي العلاء
من الخيال ؟ بل أين تقع حكم المتنبي وحكم أبي تمام من الخيال ؟
وعلى هذا النحو مضيت في دفاعك عن الشعر والشعراء ، فأفقدت
الأمر — كما قلنا — على نفسك وعلى الشعر والشعراء . ذلك أن
ما تسميه شعراً يعتمد على الحق الواقع ليس من الشعر في شيء ،
وإنما هو من النظم في كل شيء . وإذن فمن الخير لي ولك أن
تتفق على تعريف الشعر حتى لا أسمي نظماً ما تسميه شعراً ،
ولا تسمى شعراً ما تسميه نظماً

وأنا حين أعرض لتعريف الشعر لأحب أن أتأكد وأنكف ،
وأضع لك جملاً غريبة كآني أحد أسلاف من أصول الفلاسفة العليا ،
أو كآني استنزل وحياً من السماء ، ولست في الوقت نفسه أريد
أن أخترع أو أن أبتكر ، وإنما أريد أن آخذ الأشياء كما هي ،
وأعتملها كما يعتملها المستعنيون من الناس . وأظنك معي في أن
الشعر والنظم كلاهما كلام موزون مقفى ، ولكن الشعر ممتاز من
النظم بأنه يصدر عن الشاعر كما يصدر التفريد عن الطائر الفرد ،
وكما يفيض العرف من الزهرة الأرجة ، وكما ينبثق الضوء من
الشمس المضيئة ، فتأثير الإرادة وتأثير الروية فيه ضليل
جداً ، ولعله أن يكون معدوماً . أما النظم فتأثير الإرادة وتأثير
الروية فيه واضح جداً ، أوضح من أن نمرقه أو ندل عليه
ولعله أن يكون إرادة كله ، وروية كله ، ومن هنا كانت المبالغة

وخيال ليس شعرا لأنه فقد النظم ، وأن نفهم أن الكلام العاطفي المنظوم الذي لا تصور فيه للعاطفة ليس شعرا لأنه لا تصور ، ومن ثم لا جمال ولا خيال ، وأن نفهم أن الأفكار التي توضع في كلام موزون مقفى ليست شعرا لأن الأفكار لا تحتمل التصور الشعري الجليل وإنما هي محتاجة إلى الدقة وإلى التشدد في الدقة وإلى أن تسمى الأشياء بأسمائها

وأنا أكتب إليك هذا وبين يدي كتاب في الأدب المقارن لزميل من زملائك أساتذة البلاغة والنقد الأدبي ، وهو يعرف الأدب - ومنه الشعر طبعا - بأنه فكرة مصورة مزجة بعاطفة . وإذا صح أن نعرف النثر بأنه فكرة فإنه يستحيل علينا أن نعرف الشعر بأنه فكرة . على أن النثر ليس فكرة مصورة مزجة بعاطفة ، فقد يكون النثر فكرة محضة وقد يكون عاطفة محضة ، وقد يكون فكرة مزجة بعاطفة ، وقد يكون عاطفة مزجة بفكرة ، وعلى أن هذه الفكرة ليست مصورة دائما ، وإنما قد تكون مصورة مرة ، وقد تكون محضة مرة أخرى ، وقد تكون مشروحة مرة ثالثة وعلى هذا النحو ، وكلها مع هذا أثر ، ونثر فني . على أننا لا نحب أن تناقش الأستاذ الفاضل في هذا ، وإنما الذي نريد أن نقوله : هو أن الشعر ليس فكرة مصورة مزجة بعاطفة ، وإنما الشعر عاطفة مصورة ، لأن نتاج العقل لا يحتمل التصور الشعري ، وإنما هو في حاجة إلى الدقة في التعبير . وماذا يقول الأستاذ الفاضل في هذه العواطف المصورة تصويرا فنيا جيلا ، والتي لا تحمل في طياتها فكرة من الأفكار ؟ أيسقطها من الأدب لأنها ليست فكرة ؟ أم ماذا يصنع بها ؟

على أن من الحق أن نقرر أن زميلك الفاضل قد احتاط لنفسه حين عرف الأدب بأنه فكرة مصورة مزجة بعاطفة ، احتاط لنفسه احتياطا فهو يفرق بين الفكرة بمعناها الملي المحض ، والفكرة بمعناها الأدبي ، ويرى أن الفرق بينها هو الفرق بين « المالية » و « الفردية » أو بين « الموضوعية » و « الذاتية » والفكرة الملي حقيقة واقعة تفرض نفسها على الناس جميعا ، ولا تفقد صحتها إلا إذا قام البرهان الملي على فسادها . أما الفكرة الأدبية فليست حقيقة واقعة وإنما هي حقيقة في رأي الشاعر . وقد يراها الناس

وحرارتها هي كل شيء في الشعر ، ولعل أن أقول إن الشعر عاطفة كله ، ومن هنا أيضا كان العقل ونتاجه خطرا جدا على الشعر يفسده أو يكاد يفسده إفسادا لا حد له . وإذا كان الشعر عاطفة فيجب ألا تنظم هذه العاطفة نظما في الكلام ، وإنما يجب أن تصور تصويرا فنيا جيلا . وكيف أعد شعرا قول القائل : أنا محزون جدا ، أو أنا مسرور جدا ، دون أن يصور لي حزنه أو يصور لي سروره ؟ بل كيف أعد شاعرا من قال لي في كلام موزون مقفى : إنه محزون أو إنه مسرور ؟ يجب إذن أن تكون العاطفة مصورة - ولكن تصوير العاطفة ليس شيئا إذا لم يكن تصويرا فنيا جيلا . وكيف أستطيع أن أطلق على إنسان اسم الشاعر وإريشة تضطرب في يده والألوان تختلط في لوحته ؟ والفن والجمال يحضران بين يديه ؟ يجب إذن أن تكون العاطفة مصورة تصويرا فنيا جيلا - ولكن التصوير الفني لا يعتمد على العقل والمسلكت المفكرة ، وإنما يعتمد على الخيال والمسلكت الخالقة المبتكرة . وهل الاستمارة والمجاز والتشبيه إلا مظاهر من مظاهر الخيال ؟ وهل هي في الوقت نفسه إلا ألوان من ألوان التصوير الكلامي الفني الجليل ؟ فكيف تقول لي إذن : إن الشعر بعضه يعتمد على الواقع ، وبعضه يعتمد على الخيال ، وبعضه يعتمد على الواقع والخيال جميعا ؟ وهل من فرق بين أن تقول لي هذا وبين أن تقول لي : إن الشعر بعضه يعتمد على التصوير وبعضه لا يعتمد عليه ؟ وإذا لم يكن الشعر تصويرا فلمرر ماذا يكون ؟ أليكون تحليلا كتحليل الملم أم يكون شرحا كشرح الفلاسفة ؟ إن أبا العلاء - يا صديقي - لم يكن شاعرا في كل ما نظم ، ولكنه كان شاعرا حينما كان ناظما حينما آخر ، وكان يجيد مرة ويتورط في الردي مرة أخرى . وإن أبا الطيب وأبا تمام لم يكونا بمحشران الحكم حشرا بين أبيات القصائد ، وإنما كانت حكمها في كثير من الأحيان تكملة للصورة الفنية التي يرسمونها ، وأنت إذا فقتت في هذه الحكم رأيتها مبالغات وخیالات دفعت إليها العاطفة المنقلة دفعا ، فلا بد في الشعر إذن من عاطفة ، ولا بد لهذه العاطفة من تصوير كلامي منظوم ، ولا بد لهذا التصوير من جمال فني ، ولا بد لهذا الجمال من خيال . فنحن الآن نستطيع أن نفهم أن الكلام المنشور وإن احتوى على عاطفة وتصوير وجمال فني

على تعريف الشر ؛ فهو عاطفة مصورة تصوريا فنيا جيلا في كلام موزون مقفى ، وإذا قلنا مصورة تصوريا فنيا جيلا فقد ذكرنا الخيال القوي المبتكر . فنحن إذن لم نمد الحق حين قلنا إن الشر لغة الحس والشعور والخيال . وهذه الملاحظات التي تنشأ مع الفرد والجماعة وتنضج وترتق قبل أن ينضج العقل ويرتق التفكير . ولم نمد الحق أيضا حين قلنا إن الشر أول مظهر من مظاهر الفن في الكلام لأنه لغة الحس والشعور والخيال ، وأن النثر آخر مظهر من مظاهر الفن في الكلام لأنه لغة العقل ومظهر التفكير . ولم نمد الحق أيضا حين قلنا إن الشر جمل وسذاجة لأنه يعتمد على الخيال الذي يعضى حيث يشاء ويصور الأشياء كما يشاء ، لا كما تشاء الأشياء أو كما تشاء الطبيعة . وأنت غطى يا صديقي إن ظننت أني حين أصف الشر بالجمل والسذاجة أغض من شأنه أو أخط من قدره . فوصف الشر بالجمل والسذاجة مدح له وثناء عليه . لأن الشر الذي يوصف بالملم والمعق نظم كله لأن أثر فيه للشاعرية ولا للخيال . الشر جهل وخير له أن يظل جهلا ، لأنه يفقد فنيته كلما ترك الخيال المبتكر وجنح إلى الحقائق الواقعة . والشر سذاجة وخير له أن يظل سذاجة ؛ لأنه يفقد فنيته وبجالة كلما ترك هذه السذاجة وجنح إلى التفكير والعمق . على أني أحب أن نطمئن وبطمئن الشعراء وبطمئن الذين يحبون الشر وبشفقون عليه وبجدون شيئا من اللذة الفنية في قراءته وتقنيته ، فلن نستطيع هذا الحديث أن يمت الملاحظات الشعرية في نفوس الشعراء . ولن نستطيع هذا الحديث أن يقطع السبيل بين عشاق الشر وبين قراءة الشعر واستظهاره ، والتأمس اللذة الفنية في قراءته واستظهاره . بل أذهب إلى أبعد من هذا فأزعم لهم أن الشر إذا اضمحل في مصر في هذا العصر الذي ارتقت فيه الحياة العقلية ارتقاء كبيرا ، فإنهم لن يفقدوا اللذة الفنية إذا التمسوها في النثر الفني . ففي هذا النثر يجدون حياة أدبية مشرفة بمحنة مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة الشعرية الجميلة الساذجة وأراي قد أطلت عليك ، وإن كنت لم أحدثك عن كل ما أريد أن أحدثك عنه فأنا مضطر الآن إلى أن أفرغ من هذا الحديث ، وإلى وقت آخر

كمال بسيروني

وهما كاديا وخيالا باطلا ، فهي فردية ذاتية وليست عالمية ولا موضوعية . هو يريد أن يقول : إن الأدب يصف الحواطر النفسية والحواس الإنسانية ، واسكنه لم يقل هذا ويربح ويترجح ، وإعاف ودار فتمب وأنت الناس معه ولم يصب الرمي بمد هذا التنب وهذا الانجاب ، لأن الحواطر النفسية ليست أفكارا وإن رسمها بالذاتية ووصفها بالفردية ، وإنما هي خواطر ، وخواطر ليس غير . ماذا أقول ؟ بل إن الأدب ليس أفكارا ذاتية وأفكارا فردية ليس غير ، وإنما هو ولا سيما إذا كان نثرا فنيا أفكار علمية وحقائق واقعة لم تصنع صياغة علمية جافة ، وإنما صيغت صياغة أدبية جميلة أبدتها عن جفاف الملم وجفوته . وكيف أقول إن النثر النثري أفكار ذاتية أو فردية وهو لا يرق إلا في الأمم التي أوقفت في الحضارة وتقدمت في الحياة العقلية ، وأخذت من العلم والفلسفة ينسحب لا بأس به . أنا إذن عاجز عن أن أفهم أن الأدب فكرة مصورة مزجاة بماطفة . وعاجز أيضا عن أن أفهم هذا الفرق بين الفكرة العلمية والفكرة الأدبية . ذلك لأنني إن فهمت أن النثر فكرة فلن أفهم أن الشعر فكرة ، وإن فهمت أن الفكرة الأدبية ذاتية وفردية فلن أفهم أن النثر النثري أفكار ذاتية فردية ، وإذن فالاستاذ مطالب بأن يوضح لي رأيه في الأدب عامة وفي النثر خاصة وفي الشعر بنوع أخص .

على أننا قد ابتسمنا حين رأينا بكلمات نفسه شططا ورهقهما عمرا لإثبات أن الأدب ومنه الشعر فكرة مصورة مزجاة بماطفة ، وأمله كان يلح أن الشعر ليس فكرة ، وإنما هو عاطفة وشعور . فهو يقول إن الماطفة لا توجد وحدها بل توجد مدفوعة بفكرة ، أو هي بطبيعتها تنهى متى تملك صاحبها إلى فكرة من الأفكار . وأنا أحب أن أناقشه في هذا الكلام ، لأن الماطفة قد لا توجد بفكرة من الأفكار وقد لا تنهى حين تملك صاحبها إلى فكرة من الأفكار . ومن الحق أن المحزون لا يفكر في الحزن أولا حتى يحزن ، ومن الحق أيضا أن المحزون إذا تملك الحزن لا ينهى حزنه إلى فكرة من الأفكار ، وإنما ينهى به إلى البكاء ، وقد ينهى به إلى التوكل وأنا أحب أن أترك زميلك الفاضل ، فأنا لا أكتب إليه هو ، وإنما أكتب إليك أنت . وأكبر ظني أننا الآن قد اتفقنا